15

في أمان الله

قال سندباد :

كان لقائي لأبي مفاجأةً غير منتظرة في تلك الجزيرة؛ فلم أكد أصدق عيني حين رأيته، وخُيِّل إليَّ أنني في حلم من الأحلام لا في حقيقة؛ فتركته يتحدث وسرحت بخواطري إلى كل مكان.

وكانت معرفته بأني ولده مفاجأة لم يكن ينتظرها كذلك؛ ولكنه كان أثبتَ مني جنانًا، فمضى يتحدث إليَّ وإلى الشيخ في انشراح وطلاقة، وهو يُربت كتفي ويضغط على ذراعي بلطف وحنان . . .

وتذكرنا بعد لحظة زميلينا باقرًا وأبا الإسعاد، وتذكرنا النسناس الوحيد الذي بقي من قومه بعد هلاكهم؛ فخرجنا من المغارة لنذهب إلى زميلينا، ونحن نطمع أن يصحبنا ذلك النسناس، لنذهب به حيث نذهب ولكنه اختفى عن عيوننا ولم ندر أين راح؛ فلم نأسف كثيرًا على رواحه.

ومضينا إلى المغارة الأخرى، حيث تركنا باقرًا وأبا الإسعاد، وفى نفوسنا قلق شديد عليهما، وكان الله لطيفًا بهما وبنا، فرأيناهما بخير وقد خفَّت آلامهما شيئًا ما . . .

وكان فرحهما بلقاء أبي عظيمًا، وعجبهما لهذه المصادفة أعظم، ولم يصدق باقر عينيه مثلي، فقد كان يظن أن النسانيس أكلت أبي، فلما رآه ماثلًا بين يديه قال : هل بعث الله الموتى؟

فضحك أبى وقال : قد بعثني من الموت كما بعثك يا باقر!

وعرف باقر مصير النسانيس، فحمد الله على هلاكهم، وقال : أفلم يبق في الجزيرة كلها إلا ذلك النسناس الواحد ؟

قال الشيخ : نعم وما أظنه يبقى حيًّا بعد هلاك قومه !

قال أبو الإسعاد :ليته يبقى ليتفرج عليه الناس !

قال أبى : حرام ! لقد كان نسناسًا طيب القلب، وله عليَّ جميل لا أنساه؛ وإني لأتمنى أن أعثر به لأردَّ إليه الجميل !

قال باقر : لستُ آمن له ولا لواحد من جنسه، إنهم جنس شرير !

قال أبي : نعم، ولكني آسف أشد الأسف على ذهاب ذلك النسناس قبل أن أرد إليه الجميل !

*****

وقضينا تلك الليلة في المغارة، وتناولنا طعامًا غير شهى من ثمرات ذلك الشجر الكثير وراء باب المغارة، فلما أصبحنا أخذنا نفكر في طريقة نخرج بها من الجزيرة، ولكن الشيخ قال : أليس من حقنا وقد صارت الجزيرة ملكًا خالصًا لنا أن نجول في أنحائها لنعرف ماذا فيها من خيرات مخبوءة ، لعل الله يعوضنا خيرًا بعد الذي لقيناه من التعب والمشقة؟

ولم أجد في نفسي حماسةً لهذه الفكرة؛ إذ كنت حريصًا على التعجيل بالسفر، ولكن الشيخ ردني إلى الحقيقة حين قال لي: أتظن يا سندباد أننا باقون هنا باختيارنا؟ إننا مكرهون يا بنى على البقاء؛ فهذه جزيرة يحيط بها الماء من كل جانب، ولسنا نملك سفينة نبحر بها فلننتظر حتى يرسل الله إلينا سفينةً تحملنا . . .

قال باقر مازحًا : لعل سندباد يعرف طريقةً أخرى نبحر بها !

وقال أبو الإسعاد : لعل في نيته أن يصنع سفينة !

قلت : إنها والله فكرة، لو كنا نملك أدوات النجارة !

*****

وصبرنا على البقاء في الجزيرة حتى يأذن الله بالفرج؛ وكان هواءُ الجزيرة نقيًّا صافيًا، فساعد على سرعة شفاء باقر وأبي الإسعاد . . .

وكنت أنا وأبي والشيخ نخرج كل يوم في الصباح الباكر للنزهة في أطراف الجزيرة ومحاولة استكشاف أسرارها؛ ثم نعود في المساء إلى المغارة لننام، ولم نكن نأكل شيئًا غير النبات وثمر الشجر؛ إذ لم يكن في الجزيرة حيوان نأكل لحمه، فاشتقنا إلى اللحم شوقًا شديدًا، ثم بدا لنا أن نتعوِّض من اللحم بالسمك؛ فصنعنا من بعض أشواك النبات صنانير للصيد وجعلنا ذلك تسليةً نتسلى بها؛ وكان أبو الإسعاد يزعم أنه بارعٌ في صيد السمك، ولكنه جلس يومين على الشاطئ والصنَّارُ في يده فلم يصطد سمكةً واحدة، فاعتقدنا أن تلك المنطقة من البحر لا سمك

فيها، ولكنَّ أبا الإسعاد لم ييأس، وذهب في اليوم الثالث إلى الشاطئ، يحاول الصيد كعادته، ونجح هذه المرة فيما أراد، وعلَّق بالصنار صيد فجذبه من الماء فرحًا . . .

ولكن الشيء الذي علق بالصنار لم يكن سمكة كما ظن بل كان شيئًا آخر عظيم القيمة، وإن كان لا يغني عن السمك شيئًا؛ فقد كان صرةً مربوطة؛ فلما حللنا رباطها رأينا فيها حديدة قدوم وقبضةً ومسامير ومنشارًا، ومصقلة؛ فصاح فرحًا لقد اصطدت سفينة!

وبدأنا منذ الغد نصنع السفينة من خشب الجزيرة !